رسالة إلى يافا

حلمي صابر - جمادى الآخرة ١٤٤٥هـ

____



إلى يافا :

شلوم

أنا سلمى عمري تسع سنوات. لونُ شعري بين الأسود والأشقر ، أنا في الصف الثالث في دار الأونرا بغزة. كتبتُ إليك لأننا لن نرى بعضنا هكذا قالت معلمتي. نسيتُ أن أخبرك بأن لونَ عينيَ بلون الزيتون الأخضر ، وتحت ضوء الشمس تصير عيناي ذهبية.

قالت لي معلمتي بأنني أشبه جدتي التي تزورني مرةً كل شهر. ربما تساءلتي أين أمي وأبي ؟. أخبرتني جدتي بأنهما رحلا ولن يرجعا لكنني رأيت صورتهما. وددتُ أنني رأيتهما ولعبت معهما كما تلعبين أنتِ مع والديكِ.

أحبُ مادة الرياضات والعلوم واللغة العربية . حقيقة أنا أحب كل المواد المدرسية. تريدني معلمتي أن أصير طبيبة لأعالج المرضى. سأعالجهم وأعالجها لأنها تستخدم عكازًا في مشيتها. سألتها مرة لماذا ساقك اليسرى بلا ساقها ؟ قالت ستخبرني حينما أكبر. أنا كبيرة عمري تسع سنوات. حتى صرت أربط شعري الأشقر كذيل الحصان، وبعض الأحيان أجدله جديلتين. تقول معلمتي بأنّ وجهي كالمشمش الفلسطيني لأن خداي باللون البرتقالي الأحمر.

يعلموننا في المدرسة اللغة العبرية، لكنني سأكتب لك بالعربية ؛ لأن رسالتي لن تصلك ولن تُرسَل . هكذا قالت لي معلمتي الفرنسية إيلدا. هذه الرسالة واجبٌ عليَّ في حصة التعبير. فليكن، أنا قاربٌ وأنت شاطئي لأخبركِ عن حلمي وماذا أريد حينما أكبر. ومن خلال رسالتي إليك، البحرَ سأعبر. أخبريني عن نفسك ماذا تريدين أن تكوني عندما تكبرين؟.

أنا طفلة مثلكِ أريد أن ألعب حتى أَوَدُّ أن ألعب معكِ. أركب الدراجة الهوائية وأجري بها على الرمل الأحمر. أخبرتني جدتي قبل أن تضعفَ ذاكرتها : أنها كان عندها دراجة حمراء في صغرها. فقدتْ جدتي كثيرا من ذاكرتها لكنها لدارها لم تنسى. أظنُ جدتي في التسعين. تصف بيتها وشجرة التين التي توسطت فناء البيت. تردد جدتي كثيرا هذه الأيام: أرجعوني إلى الدار . ولا أعلم ماذا تقصد بالدار .
مرةً، سألتُ مدير المدرسة ما معنى الدار . أخذني المدير إلى الدور الثالث وقال لي: انظري إلى هناك ، وأشار بذراعه اليمنى إلى بيوتٍ خلف الجدار الفاصل وقال لي : دار جدتك الخالة أم يحيَ هناك بين تلك البيوت. قلتُ له خذني إلى بيت جدتي لأرى شجرة التين. أمرني بأن أذهب إلى فصلي.

أشعر يا يافا – سأناديك بيافا – بأنَّ جملاً كثيرة ناقصة في ذاكرتي كصفحة فيها مواضع مخرومة. جمعت عشرين شيكلا، وبقيَ أن أجمع ثلاثين شيكلا لأشتري دراجة مستعملة وعدتني بها معلمتي إيلدا. بالتأكيد سيكون لونها أحمرا كلون دراجة جدتي. سؤال يا يافا : هل تسكنُ جدتكم معكم في البيت ؟ وأخيرا، ربما يوما نلتقي . شلوم.

التاريخ: الاثنين ٢٢-٦-٢٠١٥م الموافق ٥-٩-١٤٣٦هـ

________ وبعد عشرين عاما تقريبا من تلك الرسالة ______

من سلمى إلى ابنتي يافا

فتشتُ أوراقي وذكرياتي، فوجدتُ رسالةً كتبتها قبل عشرين عاما تقريبا في حصة التعبير. تذكرت معها معلمتي الفرنسية إيلدا التي رجعت إلى فرنسا. وعرفت الإجابات التي كنت أجهلها أو بعبارة أخرى اكتملت الجمُل الناقصة في جمُلِي. كتبتْ جدتي رسالة في وصيتها وأخبرتني فيها عن والدي اللذين ماتا في غزة تحت القصف في الرصاص المنصهر عام ٢٠٠٨م. الله يرحمهما.

وربما يافا التي أرسلتُ إليها في حصة التعبير ، تسكنُ في دار جدتي الذي أخذه المستوطنون. يرسمُ لي ولدي فادي دراجة هوائية باللون الأحمر !. طفلاي فادي عمره ثلاث سنوات ، ويافا عمرها سبعة أشهر .

صرتُ معلمةً. أخذتُ طفلاي يوما وصعدت بهما الدور الثالث في دار الأونرا ، ورفعتهما وأشرت لهما بذراعي اليمنى إلى دار جدتي وأخبرتهما عن شجرة التين التي لا أزال اشتاق إلى رؤيتها. واسترجعت ذكرياتي في الأونرا وقصتي مع مدير المدرسة الذي أمرني بأن أذهب إلى فصلي. تزوجتُ شادي ابن خالتي التي لم أرها في طفولتي لأنها كانت في المعتقل الأصغر.

وأخيرا يا ابنتي يافا : للأسف، أحزاني تتجدد ؛ لأننا لا زلنا في المعتقل الأكبر .

استودعتك ربي ، والسلام عليكم.

الاثنين ٢٣-٧-٢٠٣٥م الموافق ١٨-٥-١٤٥٧هـ

انتهى